ابراهيم بن المهدى : حياته الفنية

كان إبراهيم بن المهدى من أنبغ المغنين وأخبرهم بالأنغام والوتر والإيقاع ، ومن أجلهم صوتاً ، وأطبعهم غناء ، جيد الصنعة ، حسن الأداء .

وهو أول من نبذ الغناء القديم وحوَّره ؛ لأنه كان مقصراً فيه ، وابتكر الغناء الجديد ، وأصبح زعيم المذهب الجديد فى الغناء ، فى حين كان إسحاق الموصلى زعيم المذهب القديم ، والخصم العنيد ، والمنافس الخطر لإبراهيم ابن المهدى .

وكان المغنون ذوو الأصوات الجميلة فى العصر العباسى الأول : ابن جامع ، وعمرو بن أبى الكنَّاب ، وإبراهيم بن المهدى ، وهم من الطبقة الأولى فى الفن .

أما من اتبع طريقة إبراهيم الجديدة ، فمخارق وشارية ورِّيق ويحيى المكى وحسين بن محرز وإسماعيل بن جامع وسواهم .

كانت صنعة ابراهيم فى الغناء لينة ورقيقة . وطالما نسب مايصنع إلى جاريتيه شارية ورِّيق لئلا ؛ يفسح مجالا للناس لانتقاده ولومه ، حتى قلت أغانيه بين الناس مع كثرتها .

وحينما كان يلام لتعديله فى الغناء القديم وتبديله وتجديده ما طاب له التجديد ، يقول : « أنا ملك وابن ملك ، وإنما أغنى على ما أشتهى وكما ألتذ . »(١)

ذكره ابن النديم فوصفه بقوله : « أول نابغ نبغ من بنى العباس . له ترسل وشعر ، وصنف كتباً . . . لم يُرَ فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ، ولا أشعر . وله مع ذلك صنعة فى الغناء يتقدم بها كل أحد . وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ، ويتحاكم المغنون إليه فى صناعته . . . وله من الكتب :

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٦ .

كتاب أدب ابراهيم » و « كتاب الطبيخ » و « كتاب الطب » و « كتاب الغناء . » (١)

وبلغ من جمال صوته أن قال ابن أبى ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب . » (٢)

وقال الأصفهانى : « . . . وكان رجلاً عاقلاً ، فهيما ، ديناً ، أديبا ، شاعراً ، راوية للشعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً ، حسن العارضة . وكان إسحاق الموصلى يقول : ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهدى . فقيل له : مع ما تبذّل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذاك ! » (٣)

وكانت أخته عُلَيَّة بنت المهدى نداً له فى الغناء والشعر ؛ فقد كانت على مقدار كبير من الحذق والنبوغ فى الشعر والتلحين والغناء . وكانت تتمتع بصوت رخيم عذب ، حتى قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : « ما اجتمع فى الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته عُلَيّة . وكانت تقدَّم عليه . » (٤)

وقال ابن الطقطقى : « . . . وكان فاضلاً ، شاعراً ، فصيحاً ، أديباً ، مغنيًّا ، حاذقاً . وإليه أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله

منكم عُلَيَّة أم منهم وكان لكم شيخ المغنين ، ابراهيم أم لهم (٥)

ويستطرد الأصفهانى بقوله : « . . . لو ذهبت إلى شرح سائر أخبار إبراهيم ابن المهدى وقصصه لما ولى الخلافة ، وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة الشعر ، ورواية العلم ، والمعرفة بالجدل ، وجزالة الرأى ، والتصرف فى الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة ، والعلوم النفيسة ، والأدوات الرفيعة ، لأطلت . . . فلذلك اقتصرت على ماذكرته من أخباره دون مايستحقه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل . » (٦)

---

(١) الفهرست : ص ١٦٨ .
(٢) الأغانى : ج ١ ص ٩٦ .
(٣) الأغانى : ج ١ ص ١٠٧ .
(٤) الأغانى : ج ١ ص ١٦٣ .
(٥) الفخرى : ص ١٦٠ .
(٦) الأغانى : ج ١ ص ٩٧ .

لم يكن إبراهيم يغنى إلا فى مجالسه الخاصة ، وفى مجالس الخلفاء . وكان يغنى سراً ترفعاً وأنفة ، أو إذا دعاه الرشيد أو الأمين . فلما ظفر به المأمون وعفا عنه ، أسرف فى صنعة الغناء وشرب النبيذ فى مجلسه ، وغدا يخرج من عنده ثملاً مع المغنين ، وذلك لفرط شغفه بالغناء . فانتهز المأمون هذه النافحة ، وشجعه على سلوكه ، وأذاع بين الناس أن عمه عزف عن المطالبة بالخلافة ، وأنه لا يصلح لها لمجونه

روى الأصفهانى عن جمال صوت إبراهيم بن المهدى ، أن الحسين بن إبراهيم ابن رياح قال : « كنت أسأل مخارقاً : أى الناس أحسن غناء ؟ قال : كان إبراهيم الموصلى أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناء من إبراهيم الموصلى بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدى أحسن منى بعشر طبقات ... أحسن الناس غناء أحسنهم صوتاً ؛ وإبراهيم بن المهدى أحسن الجن والإنس والوحش والطير صوتاً ، وحسبك هذا . » (١)

وذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى عن تأثير جمال صوت إبراهيم وعذوبته قال : « . . . وعن منصور بن المهدى : كان أخى إبراهيم إذا تنحنح طرب من يسمعه ، فإذا غنى أصغت إليه الوحوش ومدت أعناقها إليه ، حتى تضع رءوسها فى حجره ، فإذا سكت نفرت وهربت . وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل ويترك ما فى يده حتى يفرغ . » (٢)

ذكر النويرى ما يدل على عبقرية إبراهيم فى الغناء ، قال .

« وحكى عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : لما صنعت صوتى الذى هو

قل لمن صدَّ عاتبا ... ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد ... تَ وإن كنتَ لاعبا
واعترفنا بما ادَّعيـ ... ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد ... تَ فقد جئتَ تائبا

اتصل خبره بإبراهيم بن المهدى ؛ فكتب إلىَّ يسألنى عنه ، فكتبت إليه

(١) الأغانى : ج ١ ص ١٣٣ .
(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ج ٢ ص ٢٤١ .

الشعر ، وإيقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، وأصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطيعه ، ومقادير أدواره ، وأوزانه ، فغناه . ثم لقيني ، فغنّانيه ، ففضلني فيه بحسن صوته . » (١)

غنى إبراهيم فى داره هذه الأغنية من نظمه وتلحينه :

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشترَى ... فسواك بائعها وأنت المشترِى
وإذا صنعتَ صنيعةً أتممتها ... بيدين ليس نداهما بمُكدّرِ

وكانت جارية رومية لا تفهم العربية ، تكنس فى جانب من الدار ، وكان إبراهيم يطرح هذه الأغنية على جاريته شارية ؛ وإذا بالجارية الرومية تذرف دموعاً حارة . ولما ماتت الألفاظ فى حنجرة إبراهيم وتلاشت فى عالم العدم ؛ جفّ الدمع من عينى الرومية . فكان صوت إبراهيم الشجى أثار فى نفسها ذكريات عزيزة ، ما تمالكت معها عن صون دمعها الحبيس من الانطلاق من مكمنه ، فانسلّ من الأحداق سخيناً غزيراً ، حيث أطفأ جمرة تضطرم فى فؤادها الكليم .

دخل إبراهيم يوماً نشوان إلى مجلس الرشيد ، وكان فى مجلسه إبراهيم الموصلى وابن جامع . فقال الرشيد فى دعة :

— بحياتى يا إبراهيم غننى !

فتناول ابراهيم العود ، ولم يلتفت إلى الموصلى وابن جامع وغنى فى شعر لجرير من تلحين ابن عائشة :

أسرى بخالدة الخيالُ ولا أرى ... شيئاً ألذّ من الخيال الطارقِ
إنّ البلية من تَملّ حديثَه ... فانقَعْ فؤادك من حديث الوامقِ
أهوى لكِ فوق هوى النفوس ، ولم يزل ... مذ بِنْتِ قلبى كالجناح الخافقِ
طرباً إليك ولم تُبالى حاجتى ... ليس المكاذِب كالخليل الصادقِ

فقال إبراهيم الموصلى لابن جامع ، وقد لمس تفوق إبراهيم وحذقه :

(١) نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

— لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطلب ، لما أكلنا خبزا أبداً !

فأجابه ابن جامع متململاً :

— صدقت .

ولما انتهى إبراهيم من غنائه أجابهما قائلاً فى رزانة :

— خذا فى حقكما ودعا باطلنا !

كان الرشيد يحب أن يستمع غناء أخيه إبراهيم ، إلى أن تسنى له أن ينفرد به مرات . وذات يوم حضر مجلسه سليمان بن أبى جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم فى لين :

— عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك .

فإذا بإبراهيم يغنى شعراً للأحوص من تلحين ابن سريج ، وهو :

سقياً لربعك من ربع بذى سلم ... وللزمان به إذ ذاك من زمنِ
إذ أنت فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ ... وإذ أُجرُّ إليكم سادراً رسنى

وقد بلغ من طرب الرشيد أن أمر له بألف ألف درهم .

قال هارون الرشيد ذات ليلة لأخيه إبراهيم ، وكان فى مجلسه جعفر ابن يحيى فقط :

— أنا أحب أن تشرف جعفراً بأن تغنيه صوتاً .

فغرد إبراهيم فى شعر الدارمىّ من تلحينه :

كأن صورتها فى الوصف إذ وصفتْ ... دينارُ عينٍ من المصرية العُتُقِ
أو دُرّةٌ أعيت الغواص فى صدف ... أو ذَهَبٌ صاغه الصواغ من ورقِ

فاهتز الرشيد وجعفر من الطرب ، حتى بلغ منهما الجذل أقصاه .

كان إبراهيم يحسن الإيقاع على الطبل والناى . وقد أوقع مرة على الطبل إيقاعاً أذهل الحاضرين بإتقانه . وطلب إليه الأمين يوماً أن يزمر ، فأجابه بأنه لم يحاول ذلك بعد ، ولن يحاول ؛ ولكنه سأل الأمين أن يحضر جارية من

موالى المهدى ، فأمرها أن تنفخ فى الناى ففعلت ، فأمسكه إبراهيم وشرع يمر بأصابعه على فتحاته كلما مر الهواء ، فى لباقة وتفنن ، حتى ملك لب الحاضرين . وقد بلغ من براعته إذ ذاك أن أجمع الحاضرون على أنهم لم يتمتعوا بسماع عزف على الناى أجمل من هذا العزف السحرى .

لما اخرج عيسى بن محمد بن أبى خالد من السجن ، وهو من أنصار إبراهيم فى خلافته ، وقد سجن لخيانته ، كان إبراهيم يغنى المأمون بعد ظفر المأمون به ، أغنية من شعره وتلحينه :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منى ... هوى الدهرُ بى عنها وولى بها عنى
فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزة ... وإن أحتسِبها أحتسبها على ضَـن
وأفلتنى عيسى وكانت خديعـةً ... حللْتُ بها مُلكى وفلَّت بها سِنى

فأشفق عليه المأمون ، وقال له فى عطف ورقة :

— والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فطب نفساً ، فإن الله قد أمنك ، إلا أن تُحدِثَ حَدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ ، وأرجو ألاَّ يكونَ حَدَثٌ إنْ شاء الله .

رغب المأمون إلى إسحاق الموصلى أن يغنى لحناً من شعر الأخطل :

يا قلّ خيرُ الغوانى كيف رُغنَ به ... فشرْبُهُ وَشَلٌ منهن تصريدُ

فغناه إسحاق ببراعة ، فأعجب به المأمون . ثم سأل إبراهيم أهو لحن هذا الشعر ؟ فقال نعم ، وغناه غناء رائعاً . فغمرت المأمون نشوة لذيذة من الطرب ، وفضله على غناء إسحاق الذى لم يكن فى وسعه أن يفنده ، لحذقه فيه وتفوقه عليه .

غنى إبراهيم ذات يوم فى مجلس المأمون غناءً ممتعاً ، فاستحوذ الطرب على أبى زيد ، وهو كاتب لطاهر ؛ فوثب وقبَّل طرف ثوب إبراهيم اعجاباً به وبصوته الرخيم . فرمقه المأمون شزراً مستهجناً فعله . فقال له فى حماسة :

— ما تنظر ! أقبِّله والله ، ولو قتلتُ عليه !

فلاحت بسمة لطيفة على ثغر المأمون ، وهمس فى دعة :
— أبيتَ إلا ظرفاً !

كان المعتصم يضم فى يده طاقة يانعة من النرجس ، فطلب إلى إبراهيم أن يقول فيها شعراً ويغنيه . فأطرق إبراهيم هنيهة ينكت فى الأرض بقضيب ، ثم ارتجل هذه الأغنية :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرجسِ على قائمٍ أخضرِ أملسِ
تُذكِّرننى طِيبَ ريَّا الحبيبِ فَيمنَعنَنى لذة المجلسِ

فأعجب به المعتصم وغمرته البهجة وتملكه الطرب ، فأمر له بجائزة سنية .

وفى ٧ رمضان سنة ٢٢٤ سكت قلب إبراهيم بن المهدى عن الخفقان ، وخبا النور المتألق فى عينيه ، فخرست تلك الحنجرة الذهبية الشجية عن التغريد الحنون ، ومات عبقرى بنى العباس ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً وفنا ؛ وبعد أن فاض فصاحة وبلاغة وبياناً ، وغمر الحياة أنساً ومرحاً وطرباً ، وبعد أن زخرت حياته الصاخبة الوثابة ، بجلائل الأعمال والحوادث الجسام ؛ وأنتج من روائع عبقريته ما يخلده على تعاقب الأزمان ومدى الأعوام .

منير الحسامى